حبيس داخل أنفاسي

بقلم.. يزن جمال الدين / العراق

غرفة مظلمة رطبة يتخللها ضوء يكاد لا يلمح من بين فتحات التهوية لنافذة الغرفة، صوت ضوضاء لعب بالشارع والركض يتمازج مع صوت الخوف وارتجاف جسد متكور بالزاوية، جسد يستند على حائط متشقق ويديه تحتضن قدميه بشدة وأنفاسه تُسمع بكل وضوح مع كل شهيق وزفير ينطلق، بينما يرفع رأسه ليحاول استشفاف من معه بالهواء، تجد عينه تزوغ بخوف وتوتر وترتجف شفتيه بتوتر ملحوظ تنطق بهمهمات غير مفهومة تخالطها أنين مميت، تعلو أصوات كفحيح الأفعى تخالط الهدوء بنبضات متقطعة غير مفهومة: قتل.. دماء.. يجب أن يعاقبوا.

الخوف يعلو مع كل كلمة كمن ينتظر حكم الإعدام، يزحف على جنبه وهو يحاول الهروب من مصدر الصوت الذي يلاحقه مع كل حركة تصدر منه، يصل إلى الباب يتسلقه بقلق وقبضة يده التي تمسك المقبض ترتعش من الخوف والبرودة، يدير القبضة بعد عدة محاولات فاشلة لينفتح مسرعًا وهو يرتمي بجسده مخرجًا رأسه وصدره على عتبة الباب، ينفتح الباب للشقة المقابلة على صوت ارتطام الجسد بالأرض، ليغمغم صاحب الباب الأربعيني بنبرة مشمئزة مع ولده العشريني: هذا ما كان ينقصنا أن يجاورنا مجنون!

- ألـيس مكانـه بمستشـفى المجـانين، لِـمَ أطلقـوا سـراحه!؟ يعـود انتبـاه الشـاب المرتجـف وهـو يسـمع تمتمـة الرجـل: لا أعـرف لِـمَ وافـق صـاحب البيـت علـى تـأجير هـذه الغرفـة لـه. زاد التـوتر بعقلـه مـع سـماع كلمـة الرجـل: لا تقتـرب منـه فقـد يقتلك!

تسارعت بداخله كل الهواجس وهو يعود مغلقًا عليه الباب مرة أخرى مستندًا عليه باضطراب متزايد الوتيرة، هناك قيد يقيد فؤاده، عزله عن العالم يشعر به يمزق جسده يحتضن ذراعيه يحاول الهروب من كل الأصوات التي تحيط به من كل صوب، تعلو وتهمس لكن صوت واحد يتزايد معلنًا اضمحلال باقي الأصوات.

يلتفت حوله لتزوغ عينه على مصدر صوت الصرير المتصاعد من السرير الصدأ وهو يعتليه جسد متماسك تمتلئ عينه بالقوة والذكاء، ومضة ضوء باهتة أظهرت معالمه لتخفي باللحظة التالية، ليعود صوت فحيح الأفعى مجوفًا: اقتلهم، أسفك دمائهم، يجب أن يموتوا، عاقبهم على فعلتهم.

حاول الثبات ارتجف صوته وهو يحاول التحدث، كلمات متلعثمة: ماذا تريد؟

أعلن طيف يدور حوله بكل ركن بنبرة هادئة مطمئنة كصديق وفي: هم من رموك بهذا المستنقع الرث، تركوك وحيدا هنا ... اقتلهم، أنت عبء عليهم، ...انهم يكرهونك... أرادوا التخلص منك.

رفض التصديق وأخذ يردد بدون فهم وهو يتشنج متكتفًا حول جسده: هذا غير صحيح، أنت تكذب عليّ، أنهم....

ضحك الآخر وهو يركع أمام وجه لينظر بعينه مباشرة وهو يعيد تسجيل الكلمات المنتهية الصلاحية بصوته الساخر: أين هم الآن وأين أنت، غرفة متعفنة الجدران وسرير متهالك ولا ننسى طعام قشف زاهد كالناسك!

عندها لم يعد يستطيع الحركة انتهت قوته التي صارت خواء، تمثال يقاوم ولا يستطيع، شاخص العينين في نقطة وهمية تلازم التشقق المقابل لوجه المحتقن الملامح.

ظلام يحيط به من كل الزوايا يتحرك باتجاه ضوء أحمر لا ينتهي، يفتح الباب وهو مقيد، ينزل من على تلك السلام التي ما هي إلا نهاية العقار للسطح والفضاء، وميض فلورست خافت انعكس بعينه، ليلمع شيئًا بيده كضوء الشمس على القمر، اختنق وهو يصرخ ولا يعرف كيف النطق ولا مجيب على ندائه الواهن: أنقذوني، فلينجدني أحد منه أرجوكم، لا تتركوني.

يقترب من شارع بالضاحية توقف عقله للحظة وهو ما زال يتحرك " هذا الشارع وهذا المنزل البسيط ذو الحديقة الجدباء أنا أعرفه "لديه شعور أن هناك شيء غير صائب يحدث، تسلل ببطء.

شديد وهو يتناول مفتاح المنزل ذو الدورين من أصيص الزرع، بحركة اعتيادية بطيئة كمن يحارب المجهول يدور المفتاح ببيته وهو ينازع

الدقائق، يدلف من الباب متواريًا خلف ستار الليل، صعد الدرجات كمن يعرف كل حجرة بناء بهذه الدرجات.

يرتجف ولا يستطيع المنازعة لما يشعر بأنه يعرف تلك الزاوية التي يتجه لها، لما يشعر بأن هذا الباب محفور بداخله "أرجوك توقف ولا تفتح تلك الحجرة" أخذ يقترب معه من تلك النائمة التي تحتل جانبًا واحدًا من السرير الخشبي، يتولد لديه شعورًا بالصلة بينهم، كلما اقترب من جسدها انقشع ظلام يحيط بوجهها، أخذ يصرخ ويبكي: ابتعد أرجوك، لا تقترب منها، لا تفعل.

يصرخ بداخله والدموع تفر من ملامحه، أنه مضطرب وقلق، وواهن القوي، لما هذا الجسد صامد إذا ويتحرك بسلاسة، ضاعت كل تلك المشاعر وهو يرفع المعدن اللامع ليعرف تكوينه الحقيقي بضوء القمر المنبعث من خلف الزجاج، إنها سكين، لحظة واحدة فقط وعلم من هي تلك المرأة ليعود مستغيثًا وهو يصرخ: دعها أرجوك، لا تقترب إنها أمي، أرجوكم أنقذوني، ساعدوني، ساعدوني، انقذوها.

أين ذهب ضمير هذا الرجل أين ذهب عقله لما لا يتوقف سيقتلها سيقتل والدته التي أنجبته تحرك فمه ليطلب منه الابتعاد، ولكن خرج الصوت خبيثًا منتقمًا كصوت الأفعى تنشر سمها وهي تستعد للانقضاض على الفريسة: يجب أن تتعذبي، فلتراق دماءك تستحقين ذلك.

صدم من تلك الكلمات بينما هي فاقت من نومها على صوت همساته، لترتعب عندما تلمح النصل الموجهة لها وهو يقترب بكل بطء يريد تذوق طعم الخوف المنبعث من مقلتيها المرتعدة اللامعة بقطرات المطر المالحة، وهي تحرك شفتاها بدون صوت مدوي: لا يا ولدي!، لا.

بينما أصبحت صرخاتها مسموعة وهو يسدد اللكمات المستهدفة لجسدها فتراق الدماء محل كل طعنه، انزلقت السكين كمن يفتح المظروف وهو يمررها على ذراعها، ومع كل طعنه تنادي باسمه تستعطف ولكن لا فائدة من تلك العين الحمراء الدموية.

مكبل بزاوية السرير بسلاسل لا يستطيع التخلص منه وهو يري جسده يتحرك كمن فقد السيطرة يقضي على أحب الناس إليه وهو يصرخ فقط والآخر يبتسم بسخرية منه وبخبث للضحية التي يستلذ بصرخاتها، وهذا الشبح المطرود من جسده تضيق السلاسل عليه تضيق الخناق مع كل طعنه جديدة تقصر بها السلسلة بعيدًا عنها.

يستمع فقط له يهمس بصوت مرعب والحقد ينبع من كلماته: هذا لا شيء مقارنة بما فعلتوه جميعا.. سأنتقم له، وأقتلكم الواحد تلو الأخرى.. بعد أن أعذبكم.. أيها الوحوش فأنتم لستم بشر.. أنتم متجردين من الإنسانية تستحقون كل ما سأفعله بكم!

تكور في تلك الزاوية البعيدة مع وهن صرخاتها لم تعد تفيد كلماته، شاهد الثوب الأبيض الذي كانت ترتديه صار قاني اللون من نزيف الدماء، وجهها مليء بالكدمات، يتمتم وهو يستند برأسه على ركبتيه: كل هذا بسببي.. لو أني أخبرتها أنه عاد ربما لم يكن هذا ليحدث.. لكني كنت خائف.. فقد عاد متعطش للدماء.. أكثر عنف.. وأكثر شرا وعدائية.. كنت خائف جدا يا أمي.. سامحيني.. خفت أن يتنمر علي مثل الباقين..

الدموع جفت على خده، وعيناه تجمدت وهي تطلع بها بعد سماعه تلك الصرخة الأخيرة "سامحني "، سقطت يدها على الملأة يتطلع بجسد

أمه، فهو لم يعد لها فالروح فارقته، لقد شوهها حتى لم يعد يظهر من ملامحها شيء لاحظ ابتسامة جانبية خبيثة على شفاهه! فلم يعد يعي ما يحدث، فقد بدأ هذا الجسد الخائن يهتز مجددًا بطريقة غريبة كمن تعرض لصاعقة كهربائية ليسقط على الارض، شعر بالظلام يحيط به والغرفة تزداد ظلامًا، لكن يستمع لصوت يهمس بحقد: لا تخف يا عزيزي.. فقد بدأت اللعبة للتو .. هذه كانت البداية فقط. استسلم للظلام تمامًا مع تكرار تلك الجملة على سمعه لتختفي تدريجيا. فاق من تلك الغيبوبة ووجد أمه ممددة أمامه تحتل فراشها، أو بمعنى أصح بقايا جسدها المطعون المشوه فلم يعرفها سوى من تلك الشامة التي تزين خدها الأيمن، صدم فكل ما رآه الآن جثة مشوهة، صرخ بأعلى صوته وهو ينادي ببكاء ونحيب: أمي.. أمي.. كيف سأنتقم من قاتلك يا أمي.. كيف سأخذ بثأرك.. حتى الانتحار.. يعاقبني عليه ويمنعني منه.. كان يجب أن أخبركم أنه عاد.. أنا آسف.. لم أرد أن ترموني مجددا بذلك المكان المظلم.. المليء باللون الأبيض.. لم أرد أن أحبس مجددا بغرفة مظلمة، خفت من الصواعق الكهربائية.. دمروني.. وكلما زاد خوفي.. كان هو يقوى أكثر يا أمي.. حتى أصبح متعطش لدماء.. ويرغب بالانتقام، يحاكمك لأنك لم تمنعي أبي من وضعي بالمشفى، قتل أخي الذي ساعد أبي وقتلك... أخذك مني.. سيقتلهم جميعًا!

يحتضن جسد أمه ويشكي لها فقد علم أنه لن يراها مجددًا، ليفاجئه أبيه وهو يدفعه عنها ليرتمي طريحًا بالأرض، يستسلم لتلك الأساور الحديدية التي تطوق كفية من قبل الشرطة التي أمسكته، أخذوا يكيلون لها الأسئلة، وهو يجيب، لم يعلموا أنه يقول الحقيقة فهم لا يصدقونه وهو يصرخ: "لقد قتل .. جسدي.. أمي"